خطبة صلاة الجمعة 23/11/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

www.dr-shaal.com

## (حجَّة الإسلام الإمام الغزالي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله العظيم، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتَّقين تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكارِه في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبِّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الخامسة عشرة من سلسلة (أعلام من الشام)، أحدثكم في كل خطبة منها عن واحد من أعلام هذا البلد التقيِّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عَن عَلَم وُلد هنا أو مرَّ من هنا

فعاش حقبة من الزمن أو توفاه الله في هذه البلدة، والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنتُ قد تحدثتُ إليكم عن السلطانين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وعن الإمامين الأوزاعي وابن كثير، وعن الحافظين الذهبي والمزّي، وعن شيوخ الإسلام النووي وموفق الدين بن قدامة المقدسي وابن تيمية، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرّخِ دمشقَ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في خطبتين.

وحديث اليوم عن:

## (حجة الإسلام الإمام الغزالي)

هو أبو حامد، محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسيّ، الشافعي، الغزالي.

ولد بـ "طوس" مدينة شمال شرق إيران، ولذلك جاء في نسبه: (طوسِيّ)، وبلدته غزالة لذا قيل له: (الغزالي)، وربما شدَّد بعض العلماء الزاي في نسبه فقيل له: (الغزّالي) نسبة لصنعة أبيه في غزل الصوف، وكلاهما –الغزَالي، والغزّالي– نسبتان صحيحتان له.

كان والده فقيراً صالحاً لا يأكل إلا مِن كسب يده، وكان يختلف في أوقات فراغه إلى مجالسة العلماء، ويطوف عليهم، ويتوفّر على خدمتهم، ويجدّ في التفقُّه بما يمكنه، وكان إذا سَمِعَ كلامهم بكى وتضرَّع إلى الله أن يرزقه ابناً يجعله فقيهاً وواعظاً، فرزقه الله ولدين، هما: أبو حامد، وأخوه أحمد.

ولم تُمهِله الأقدار حتى يرى رجاءه قد تحقَّق ودعوتَه قد استُجيبت، فقد توفي وما يزال أبو حامد صغيراً لم يبلغ سنَّ الرشد.

وكان الأب الشفيق قد أوصى بولديه إلى صديق من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسُّفاً عظيماً على تعلُّم العِلم، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين، فعلِّمهما ولا عليك أن تُنفِذ في ذلك جميع ما أخلّفه.

فلما مات الأب أقبل صديقُه على تعليمهما، إلا أن المال الذي خلَّفه أبوهما كان نزراً يسيراً، ما فتئ أن ذَهَب، وتعذَّر على الرجل القيام بقوتِهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقتُ عليكما ما كان لكما، ولا مال لي فأواسيكما به، وأَصلَحُ ما أرى لكما أن تلجأا إلى مدرسة، فإنكما مِن طلبة العلم، فيحصل لكما قوتٌ يعينكما على وقتكما، واستشارا أمَّهما فوافقت، ففَعَلا، وكان الغزالي يقول: طلَبْنَا العِلمَ لغيرِ الله، فأبى أن يكون إلا لله.

قرأ الغزالي في صِباه طرفاً من الفقه ببلدته، ثم سافر طلباً للعلم، وفي طريق سفره حدَثَ له ما جَعَلَه يجتهد في أن يحفَظَ ما يكتُب ويفهَم ما يُعَلَّم، يقول:

(خرج علينا في إحدى أسفارنا -بدايةَ الطلب- جماعةٌ من قُطَّاع الطريق، فأخذوا جميع ما معي، ومضوا، فتبعتهم، فالتفتَ إليّ مقدَّمُهم، وقال: ارجع ويحَك وإلا هلَكت، قلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تَرُدَّ عليّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتك؟

فقلت: كُتُبٌ في تلك المخلاة[1]، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة عِلمها.

فضَحك، وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت عِلمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها وبقيتَ بلا علم؟

ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة.

قال الغزالي: هذا رجل أنطقه الله ليُرشَد به أمري.

فلما وافيت مدينتي "طوس" أقبلتُ على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظتُ جميع ما علَّقته، وصرتُ بحيث لو قُطِع عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي.

لازَم الغزالي إمامَ الحرمين الجويني، وجّد واجتهد حتى فاق أقرانه وهم أربعمائة، فجعَلَه أستاذه معيداً ونائباً عنه. وكان يقول: الغزالي بحر مغدِق.

ثم تولى الغزالي بعد وفاة الجويني التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، ولم يتجاوز سنُّه الرابعة والثلاثين، وقلَّما تقلَّد هذا المنصب الرفيع عالم وهو في هذه السن.

درّس الغزالي بالنظامية، وأعجبَ الخلقَ حسنُ كلامه، وكمالُ فضله، وفصاحةُ لسانه، ونُكَتُهُ الدقيقة، وإشاراتُه اللطيفة، وأحبُّوه وعلَت حشمته ودرجته في بغداد.

وبلغ في تلك الأيام قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة بالمال والشهرة وذيوع الاسم، والجاه ونفوذ الكلمة، ثم حصل تحوُّلٌ مهم في حياته، ولنترك الحديث للإمام الغزالي، فهو خير من يشرح لنا قصته في هذا التحوُّل:

(ابتدأتُ بمطالعة كتب أهل التصوف مثل "قوت القلوب" لأبي طالب المكي رحمه الله، وكُتُب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد..، فعَلِمتُ يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا

---

[1]() شبه كيس يُجعل فيه الخلَى (العشب) ونحوه.

أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصَّلتُه، ولم يبقَ إلاَّ ما لا سبيلَ إليه بالسماع والتعليم، بل بالذوق والسلوك.

وكان قد ظهر عندي: أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفِّ النفس عن الهوى، وأنَّ رأس ذلك كلِّه: قطعُ علاقة القلب عن الدنيا؛ بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى.

ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدَقَت بي من الجوانب، ولاحظتُ أعمالي -وأحسنها التدريس والتعليم-، فإذا أنا فيها مقبِل على علومٍ غير مهمَّة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكَّرت في نيَّتي في التدريس، فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى، بل باعثُها ومحرِّكُها طلب الجاه، وانتشار الصِّيت، فتيقَّنتُ أني على شفا جرف هار، وأني أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال..!!

ولم أزل أتردَّد بين تجاذُب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر، والتجأتُ إلى الله تعالى التجاءَ المضطر الذي لا حيلةَ له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب).

وغادر الغزاليُّ بغداد تاركاً مجدَه وعزَّه وراءه، فحجَّ وتوجه إلى الشام، فأقام بها عشر سنين، قضى بعضها في بيت المقدس، وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، واشتغالاً بتزكية النفس وتصفية القلب لذكر الله تعالى، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار، وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل..

فانقلب شيطان الرعونة وطلب الرياسة والجاه والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس، وكرم الأخلاق، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية.

وأخذ في تصنيف "إحياء علوم الدين" الذي أراده أن يكون منهجاً يعمل به هو نفسه، ويعمل به الناس من حوله ليبدّلوا ما نزل بأشخاصهم من التقصير والبعد عن أمر الله ونهيه، ويُغيِّروا ما نزل بالأمة الإسلامية من ضَعف وخَوَر سلَّط عليهم الصليبيين فعاثوا في ديارهم فساداً.

ثم عاد بعد تلك العزلة إلى الناس تعليما وتربية وتوجيهاً، بنيَّة جديدة، وهدف جديد يختلف كل الاختلاف عما كان عليه سابقاً.

يقول الغزالي: (رجعت إلى نشر العلم، وأنا أبغي أن أُصلِح نفسي وغيري؟ وأؤمن إيمان يقين ومشاهدة: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وأني لم أتحرَّك لكنه حرَّكني، وأني لم أعمل لكنه استعمَلَني، فأسأله: أن يُصلِحَني أولاً، ثم يُصلِح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريَني الحقَّ حقاً ويرزقَني اتِّباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه).

قال أحد الباحثين: (لقد قام الغزالي رحمه بجهودٍ إصلاحية ضخمة في إحياء فقه القدوم على الله، وتقوية الجانب الروحي، وتهذيب النفوس، وتنوير العقول، وإصلاح النوايا ومحاربة الأمراض القلبية وإحياء المعاني الإيمانية، وأخلاقيات التضحية والورع، والصبر، والإنابة، والاستعانة بالله تعالى، ولقد ساهمَت جهودُه في توعية الأمة.

وتلقَّف بعض المصلحين الكبار -كعبد القادر الجيلاني- شيئاً من منهجه التربوي، وأقام مدرسة شعبية كبيرة؛ ساهمت في توعية عَوام المسلمين، ودعمِ حركة الجهاد التي قادها نور الدين وصلاح الدين فيما بعد، فالمدارس النظامية -والتي من كبار مدرسيها الإمام الغزالي- ساهمَت في حركة الإصلاح التي تتابعت حلقاتها حتى انتهت بدحر الغزاة الصليبيين، واسترجاع الأرض والمقدسات عبر قرنين من الزمن).

توفي الإمام الغزالي -رحمه الله- سنة خمس وخمسمائة للهجرة عن خمس وخمسين عاماً، وترك لنا مائتي مصنَّف، وجيلاً صار فيما بعد محرِّراً لبيت المقدس والعالم الإسلامي من أيدي الصليبيين، يقودُه صلاح الدين الأيوبي.

قال أخوه أحمد: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضَّأ أخي أبو حامد، وصلَّى، وقال: عليّ بالكفن، فأخذه وقبّله، وتركَه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مّد رجليه، واستقبل القبلة.

فسأله بعض أصحابه قال: أوصني، فقال له: عليكَ بالإخلاص، عليك بالإخلاص، فلم يزل يُكرِّرُها حتى مات.

رحم الله حُجَّة الإِسْلاَمِ الإمام الغزالي وأجزَلَ مثوبتَه، وجَعَلَنا وذريَّاتنا على نهجه وطريقته.

والحمد لله رب العالمين